الفصل الاول

الحياة الدينية

احتلت المعتقدات والعبادات والطقوس الدينية حيزاً كبيراً ومهماً في حياة الشعوب القديمة وتركت آثاراً واضحة على مسيرتها الحضارية . ولعلنا لا نكون مخطئين اذا قلنا ان الجانب الديني كان من ابرز العوامل المؤثرة في حضارات الامم القديمة ، فهو يسهم في تحديد الاطر العامة للعادات والتقاليد والاعراف والقوانين وله اثره في الحياة الاقتصادية والفنيه والادبية . ولذلك فدراسة الديانة تعتبر على قدر كبير من الاهمية لمعرفة تاريخ وحضارة أية امة من الامم . ومهما اختلفت الديانات وتباينت فيمكن القول بصورة عامة انها تفترض وجود قوة او قوى عليا في الكون يسعى الانسان دائما للتقرب اليها عن طريق عبادات وطقوس معينة تقام في اماكن مخصصة .

ولاشك في ان المعتقدات الدينية قديمة قدم الانسان نفسه فهي ترجع الى ازمان بعيدة من عصور ما قبل التاريخ . وعلى الرغم من ان الانسان لم يهتد آنذاك الى معرفة الكتابة فأن ماخلفه من آثار مادية مثل الرسوم على جداران الكهوف والدمى الطينية والحجرية قد اسهمت في الكشف عن جوانب من معتقداته التي حاول من خلالها فهم وتفسير ما يحيطه من الظواهر الطبيعية المختلفة . ويظهر من دراسة تلك الآثار ان انسان العصر القديم كان قد عرف ومارس بعض الافكار والطقوس السحرية الدينية التي اعتقد ان لها تأثيراً ايجابياً على الحياة اليومية . فقد لاحظ الانسان منذ عصور قديمة جدا أن الطبيعة بخضرة ارضها وغزارة مياهها وكثرة حيواناتها كثيرا ماتتغير وتنقلب فيحل فيها الجذب عندما تجف الينابيع وتذبل الاعشاب وتختفي الحيوانات واخيرا يصبح من الصعب عليه الحصول على غذائه مما يهدد وجوده بالفناء .وتجسمت خطورة مثل هذه التغييرات بالنسبة للانسان خاصة في العصور التي سبقت توصله الى معرفة الزراعة وتدجين الحيوانات وهي الفترة المعروفة بجمع القوت التي كان الانسان خلالها يحصل على قوته ثمار الاشجار وصيد الحيوانات

وفي خلال مرحلة من مراحل تطور الانسان العقلي تصور ان في مقدوره تحـ بعض الظواهر الطبيعية الصالحة ليستطيع من خلال ذلك تفادى النتائج السلبية ـ تؤدى اليها تلك التغييرات في الظواهر الطبيعية . وكان ذلك بداية الاعتقاد بقوة السح القائم على مبدأ التشبيه او المحاكاة اى اعتقاد الانسان بامكانية استحداث الاشيـ والظواهر الطبيعية عن طريق تقليدهـــا او محاكاتها . ولهـــذا كـــان انســان العص الحجري القديم يمارس طقوسا سحرية ويؤدي رقصات تنكرية يتقمص مـــن خلالها ظاهرة طبيعية معينة او شيئا معينا اصبحت الحاجة ملحة الى وجوده كـــأن يكون نزول المطر وتكاثر الحيوانات او عملية صيد ناجحة .

ان الادلة على وجود مثل هذه المعتقدات السحرية الدينية عند الانسان ترجع كما قلنا الى العصر الحجري القديم ، وعلى وجه التحديد الى الـــدور المجدليني الذي يقع بين ٣٥-١٢ الف سنة قبل الآن .اذ عثر في كهوف فرنسا واسبانيـــــا على رسوم ملونة تمثل أنواعا متعددة من الحيوانات والطيـور والاسماك التي كان الانسان يصطادها ويعتمد عليها في غذائه . اذ اعتقـــد انسان ذلك العصر انهاذا ما رسم صور الحيوانات التي يرغب في اصطيادها فأن الحيوانات الحقيقية ذاتها سوف تقع تحت سيطرته ايمانا منه بان السيطرة على الشبيه سوف تمكنه من تحقيق سيطرته على الاصل . واعتقادا منه بالمبدأ نفسه فقد صنع الانسان في هذا العصر منحوتات صغيرة على شكل الدمى مـــن العاج والعظام والحجر والطين يمثل قسم منها نسوة حبالي .والراجح انه صنع هذه الدمى من أجل التشبه بالقوى الخلاقة في الطبيعـــة ومن اجـــل التعبير عن مفهوم الخصب والتكاثر تجسدها بصورة واقعية تمثل امرأة حبلى والتـــبي اصبحت فيما بعد تعرف بالآلهة الام .

ومقدر ما يتعلق الأمر بوادي الرافدين فأن الادلة على وجود المعتقدات الخاصة بالالهة الأم بين السكان تعود الى أقدم المستوطنات الزراعية المعروفة لحـــد الآن اذ عثر في جرمو التي يرقى زمنها الى الالف السادس قبل الميـــلاد على مجموعة من الدمى يمثل قسم منها نسوة حبالى مع سمنة مفرطة في الارداف وقد عثر على نماذج

وفي خلال مرحلة من مراحل تطور الانسان العقلي تصور ان في مقدوره تسخير بعض الظواهر الطبيعية الصالحة ليستطيع من خلال ذلك تفادى النتائج السلبية التي تؤدى اليها تلك التغييرات في الظواهر الطبيعية . وكان ذلك بداية الاعتقاد بقوة السحر القائم على مبدأ التشبيه او المحاكاة اى اعتقاد الانسان بامكانية استحداث الاشياء والظواهر الطبيعية عن طريق تقليدها او محاكاتها . ولهذا كان انسان العصر الحجري القديم يمارس طقوسا سحرية ويؤدي رقصات تنكرية يتقمص من خلالها ظاهرة طبيعية معينة او شيئا معينا اصبحت الحاجة ملحة الى وجوده كأن يكون نزول المطر وتكاثر الحيوانات او عملية صيد ناجحة .

ان الادلة على وجود مثل هذه المعتقدات السحرية الدينية عند الانسان ترجع كما قلنا الى العصر الحجري القديم ، وعلى وجه التحديد الى الدور المجدليني الذي يقع بين ٣٥-١٢ الف سنة قبل الآن اذ عثر في كهوف فرنسا واسبانيا على رسوم ملونة تمثل أنواعا متعددة من الحيوانات والطيور والاسماك التي كان الانسان يصطادها ويعتمد عليها في غذائه . اذ اعتقد انسان ذلك العصر انه اذا ما رسم صور الحيوانات التي يرغب في اصطيادها فأن الحيوانات الحقيقية ذاتها سوف تقع تحت سيطرته ايمانا منه بان السيطرة على الشبيه سوف تمكنه من تحقيق سيطرته على الاصل . واعتقادا منه بالمبدأ نفسه فقد صنع الانسان في هذا العصر منحوتات صغيرة على شكل الدمى من العاج والعظام والحجر والطين يمثل قسم منها نسوة حبالي .والراجح انه صنع هذه الدمى من أجل التشبه بالقوى الخلاقة في الطبيعة ومن اجل التعبير عن مفهوم الخصب والتكاثر تجسدها بصورة واقعية تمثل امرأة حبلى والتي اصبحت فيما بعد تعرف بالآلهة الام .

ومقدر ما يتعلق الأمر بوادي الرافدين فأن الادلة على وجود المعتقدات الخاصة بالالهة الأم بين السكان تعود الى أقدم المستوطنات الزراعية المعروفة لحد الان اذ عثر في جرمو التي يرقى زمنها الى الالف السادس قبل الميلاد على مجموعة من الدمى يمثل قسم منها نسوة حبالى مع سمنة مفرطة في الارداف وقد عثر على نماذج

تتصف الديانة في بلاد وادي الرافدين بصفات مميزة، لعل من ابرزها ما يعرف بين المختصين بمبدأ الحيوية أي الاعتقاد بوجود قوى او ارواح كامنة في مظاهر الطبيعة وتجسيدها بهيئة الهة . فقد رأينا من خلال حديثنا عن معتقدات الانسان في عصور ما قبل التأريخ انه مارس بعض الطقوس التي كان يهدف من خلالها زيادة الخصب والتكاثر وضمان حصوله على صيد وافر . وفي مرحلة لاحقة وخاصة بعد ان توصل الانسان الى الزراعة وتدجين الحيوانات مما ادى الى ارتباطه بالارض اكثر من أي وقت مضى ، صار يرى بان هناك قوى فعالة في كل ما حوله من الظواهر الطبيعية والتي كان معظمها يشكل بالنسبة له تحديا واضحا في حياته اليومية ، وتتجلى خطورة الظواهرلأنسان تلك العصور خاصة في بلد رسوبي منبسط مثل بلاد سومر واكد تتغير فيه الظروف المناخية والطبيعية بشكل متطرف خلال فصول السنة ولذلك جسد الانسان تلك القوى الطبيعية بهيئة الهة خصها بالعبادة والتقديس .

وطبيعي ان تحظى السماء باهتمام الانسان مثل غيرها من الظواهر الكونية الاخرى .وقد اطلق السومريون اسم آن(AN)على اله السماء واعتبروه في المرتبة الاولى بين الالهة كلها وبقى كذلك في مختلف العصور من تاريخ العراق القديم .

هذا وقد اعتقد السومريون والبابليون بأن الكون كان يتألف بالاصل من السماء والارض متحدتين وانه بعد انفصالها عن بعضها تكون ما يعرف بالفضاء او الجو حيث تهب الرياح وتعصف الزوابع وتصوروه الها اطلقوا عليه اسم انليل بمعنى السيد الريح وتأتي الارض (في السومرية KI) في المرتبة الثالثة بعد السماء والارض وقد جسد العراقيون القدماء القوى الطبيعية الموجودة فيها بهيئة اله هو انكي أي سيد الارض غير ان هناك ظواهر كونية وطبيعية عديدة في السماء والاجواء والارض ففي السماء على سبيل المثال يلاحظ الانسان الشمس والقمر والكواكب .وفي الاجواء يلمع البرق ويدوي الرعد وتهب الرياح والعواصف . وفي الارض توجد الأنهار وتنمو النباتات والاشجار وتتكاثر الحيوانات .فجسم القوم كلا من هذه الظواهر بهيئة اله اعطوه اسماء وخلعوا عليه صفات مميزة